التراث الديني عند الموريسكيين

من خلال المخطوطات الألخميادية

الدكتورحنيفي هلايلي

جامعة سيدي بلعباس

رغم مرور عدة قرون على ضياع الأندلس، إلا أن الباحث العربي بصفة عامة لم يقم بواجبه كاملا من حيث استخلاص الدروس والعبر من تلك التجربة الفريدة، وإذا أردنا أن نتعرف على مدى علاقة الشعائر الدينية التي مارسها الموريسكيون بالإسلام الصحيح فإن أمامنا نوعين من المصادر:

1. ملفات محاكم التفتيش التي نظرت قضايا اتهام أشخاص بممارسة الشعائر الإسلامية المحظورة قانونيا.

2. المخطوطات التي خلفها الموريسكيون أنفسهم.

على أنه يجب أن نضع في الاعتبار أن ملفات محاكم التفتيش لا تتعرض لوصف الشعائر الدينية بطريقة دقيقة، ومعظم المسيحيين يصفون في بعض الأحيان شعائر لا تمت للإسلام بصلة ويتهمون من يمارسها بأنه مسلم. ومن العجب أن محاكم التفتيش الإسبانية كانت تأخذ برأيهم. قد تفيد ملفات محاكم التفتيش في التدليل على أن الأندلسيين ظلوا متمسكين بدينهم حتى اللحظات الأخيرة.[1]

---

1 – للمزيد حول الموضوع يرجى العودة إلى:

Denise CARDAILLAC, « Alqayci et le moine de Lerida », ou comment affirmer une identité islamique en milieu chrétien », in Actes du II symposium international du C.I.E.M sur « religion, identité et sources documentaires sur les morisques Andalous », Publications ISD, Tunis, 1984, T1, PP.129-137.

تعتبر المخطوطات الموريسكية، وهي مخطوطات إما باللغة العربية أو بالألخميادية والجزء الأعظم من هذه المخطوطات لم يدرس بعد رغم أهمية هذا التراث في التعرف على إسلام أهل الأندلس بعد سقوط آخر حكومة تمثلهم في شبه جزيرة إيبيريا. وقد رسم الراهب المسيحي بدرو لونغاس Pedro Longras صورة إسلام الموريسكيين على أساس تلك المخطوطات[2].

1- إن الألخميادية في اللغة الإسبانية المكتوبة بحروف عربية، وقد اتخذ الموريسكيون من الأدب الألخميادو وسيلة للدفاع عن كيانهم أمام خطر الذوبان والانتشار، وكلمة ألخميادو (Aljamiado) مشتقة من العربية وهي نعت بني على كلمة Aljamia وأصلها "أعجمية" أي كل ما هو غير عربي، فالأدب الألخميادو هو إذا أدب آخر مسلمي الأندلس، أنظر:

محمد نجيب بن جميع: "الأدب الألخميادو والموريسكي: تأصيل لكيان" في الكتاب التكريمي لمدرسة أوفيدو، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات: تونس 2003، ص19.

2- حدد الراهب الإسباني **لونقا** الأطر العامة للإسلام الخفي المتبع من طرف الموريسكيين في إسبانيا خلال القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر من خلال أربع نقاط وهي:=

1. الخط السياسي المتبع مع الموريسكيين في المجال الديني 1492-1605.
2. تمسك الموريسكيين بممارسة شعائر الإسلام.
3. اختلاف وضعية الموريسكيين زمانا ومكانا.
4. عدم فعالية وسائل محاكم التفتيش لتحويل الموريسكيين إلى الدين المسيحي.

لمزيد من التفاصيل راجع:

بدرو لونقا، الحياة الدينية للموريسكيين الأندلسيين، (تعريب: د/جمال عبد الرحمان)، زغوان: سير مدي 1993، ص40-41.

تشير المخطوطات الموجودة في المكتبة الوطنية بمدريد سواء المحررة باللغة العربية أو تلك التي كتبت بالألخميادية، إلى أن التراث الإسلامي الذي خلفه الموريسكيون يمكن تقسيمه على النحو التالي[1] :

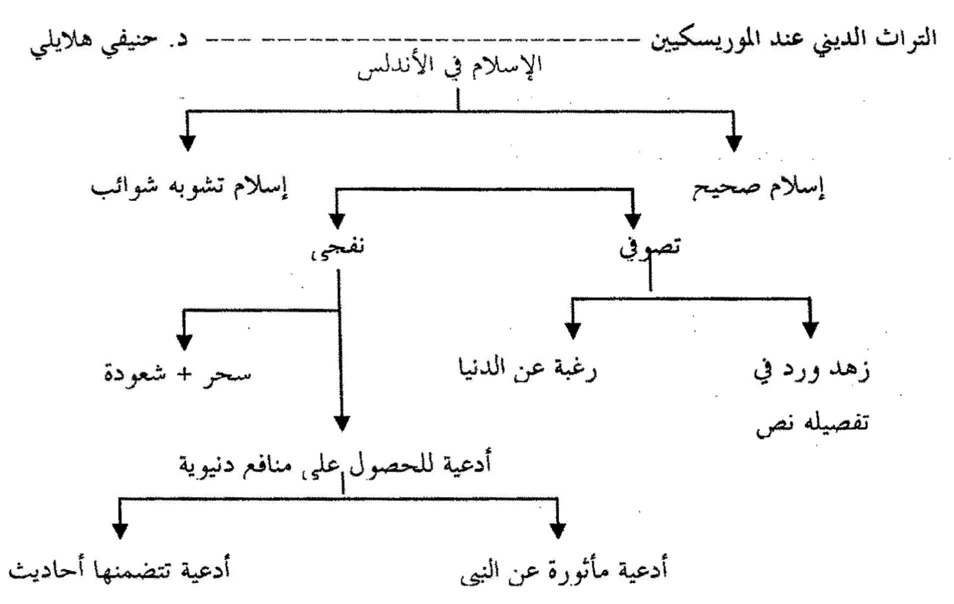
أولا: الإسلام الصحيح:

الإسلام الصحيح موجود في مخطوطات تتعلق بشتى أنواع الكتابة الدينية كتفسير القرآن الكريم أو فقه العبادات والمعاملات. وبالرغم من أن المذهب الغالب على هذه الكتابات هو المذهب المالكي، إلا أننا عندما نتحدث عن الإسلام الصحيح، نعني موافقة هذا التراث لأي من المذاهب الأربعة. والملاحظ في هذا النوع من المخطوطات أنها شروح لكتب قديمة، والمخطوطات مفيدة لمن يرغب في دراسة كيفية تدهور مستوى اللغة العربية في الأندلس بعد سقوط غرناطة.

تتعرض إحدى المخطوطات إلى فصول عن الوضوء الواجب ووضوء السنة والتيمم، ثم تدخل إلى شرح الصلاة فتتحدث عن تكبيرة الإحرام والتشهد وصلاة الوتر ثم تفرد فصلا للزكاة وتفرق بين زكاة الحلي وزكاة الفطر وتنتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الصوم، ثم تعرض أركان الحج رغم استحالة تأدية هذه الفريضة عمليا بالنسبة للمورسكيين، ومجموع الأحاديث منسوبة إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه[2].

1 -Abdekjelil Temimi, « Attachement des Morisques a leur religion et a leur identité à travers les Hadiths dans deux manuscrits morisques », in, Actes du II symposium..., op.cit, T1, PP.155-160.

2- مخطوطة رقم 4987، المكتبة الوطنية، مدريد



ثانيا: الإسلام الذي تشوبه شوائب:

في هذا القسم من المخطوطات اختلط الحق بالباطل، فالإسلام التصوفي على سبيل المثال يجنح إلى الزهد في متاع الدنيا والاستعداد للآخرة. وتعتبر المخطوطة رقم 5099[1] مثالا للكتابات الزهدية فهي تتعرض لقصة الإسراء والمعراج وتصور الجزاء الذي ينتظر المقتصرين في أداء الطاعات، ويذكر مؤلف المخطوطة، أن النبي (ص) قد امتطى البراق ومر بمصر فوجد ريحا طيبة تنبعث منها، أنها رائحة امرأة كانت تعبد الله مع امرأة فرعون، وتتضمن المخطوطة رقم 5390[2] – معظمها من وحي خيال المؤلف– عن الصحابة والتابعين، تهدف جميعها إلى تقديم الموعظة والعبرة، فهي تحكي قصة وفاة بلال بن حمامة (بلال بن رباح) رضي الله عنه وتعرض وصية النبي (ص) لأبي ذر الغفاري. من المهم أن نذكر أن هذه المخطوطة قد كتبت عام 1603م ولعل في هذا أبلغ دليل على تمسك الموريسكيين بالإسلام

1- المكتبة الوطنية– مدريد.

2- نفسه.

كما تنص إحدى المخطوطات الموريسكية على إمكانية أن يحصل الشخص العادي على أجر أولي العزم من الأنبياء بمجرد قراءة دعاء معين وعلى أن إنكار الدعاء يخرج الإنسان من دائرة الإيمان. إن هذه المخطوطات تمضي في هذا النوع من السرد الذي يميز بعض الأحاديث الموضوعية: " أيما عبد دعاء بهذا الدعاء بنية خالصة يخالطها شيء من الشك أو رمضان وآخره في كل يوم جمعه وليلتها يريه الله تعالى ليلة القدر ويخلق الله له سبعون ألف ملك في مدينة النبي عليه السلام وسبعون ألف ملك في المشرق وسبعون ألف ملك في المغرب لكل ملك عشرين ألف رأس عين وعشرين ألف فم وعشرين ألف لسان يسبحون الله تعالى بلغات مختلفة ويجعلون ثواب تسبيحهم لمن دعا هذا الدعاء"، والدعاء نفسه عبارة عن تسبيح في بضع وستين صفحة[1].

وإنه لمن الأهمية بمكان معرفة الأسباب التي أدت إلى انحراف بعض مسلمي الأندلس عن طريق الصحيح. يتبين من خلال المخطوطات الموظفة في هذه الدراسة أن البدع كانت وراء وضع أحاديث تدعوا إلى الزهد ونسبت هذه الأحاديث إلى النبي (ص). ولا نستبعد مشاركة غير المسلمين في وضع أوراد تهدف أساسا إلى تعويض أركان الإسلام في الأندلس[2]

ظل الأندلسيون إلى غاية 1525م يتمتعون بمساجدهم وفقهائهم، لكن بعد فرض التعميد الإجباري أعطيت الأوامر بإغلاق جميع المساجد، وأصبحت بذلك العبادات تمارس داخل المنازل وفي مساجد سرية.رغم المتابعات المتواصلة التي كان يقوم بها المحققون فإن الفقهاء ظلوا يؤطرون الموريسكيين يعلمونهم مبادئ دينهم، ويحثونهم على التمسك بها، وعدم الانحراف وراء حملاتهم التبشير التي كان يقوم بها الرهبان، وكان دورهم بارزا أثناء

1- مخطوطة رقم 5384، المكتبة الوطنية- مدري

2- ربما يكون رجال الكنيسة وراء وضع أحاديث مدلسة لتقويض الإسلام عند الموريسكيين

المناسبات الدينية، فقد كانوا مكلفين بجمع الصدقات وتوزيعها على المعوزين، كما كانوا يشرفون على عمليات ختان الأطفال[1].

وإليك نص ألخميادي يتحدث عن سقوط غرناطة: يخاطب يوسف بناغس (Yuse Banegas) فتى أريفلو (El Mancebo de Arévalo)، قائلا: "يا بني، أنا أعلم أنك لا تعرض شيئا عن أحداث غرناطة، فلا تجزع إن ذكرتك بما جرى، فلطالما طاردتني هذه الذكرى ومزقت أحشائي في كل لحظة... يا بني، أنا لا أبكي الماضي لأن ما حدث لا رجعة فيه، ولكني أبكي ما سيحدث وما سترى لو بقيت على قيد الحياة في شبه جزيرة الأندلس، وأسأل الله عزّ وجلّ أن يكذب تنبؤاتي، إذ سيأتي يوم يقول فيه الناس أين ذهب الأذان؟ ماذا صنعوا بدين أجدادنا؟ وستكون الحسرة والمرارة في نفس كل من يفقه... ومما يزيد ألما أن المسلمين سيلبسون لباس النصارى وسيأكلون من طعامهم. والله أسأل أن لا ينساقوا إلى دينهم بقلوبهم وأن يكون صنيعهم مجرّد تقية... قد أبدو لك متحمساً ولكن ما سيكون مصيرنا إذن نحن وصلنا إلى الفاقة في وقت وجيز؟ وإن كان الأولياء يحرفون دينهم، فكيف سيرفع أبناؤهم وأحفادهم من شأنه؟ وإن لم يف ملك إسبانيا (Fernando el catholico) بوعوده، ماذا نترقب من خلفائه؟ يا بني ستزيد حالتنا تدهورا والله أسأل أن يحيطنا برحمته وعفوه"[2]

يتضح مما سبق أن الملك الإسباني فيليب الثاني (1556-1598م) صار في نفس الاستراتيجية العامة التي حددها أبوه شارل الخامس (1519-1556م)، وتتمثل في ضرورة

1- محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17م، ط3، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 1998، ص 104-105.

2- L.P. Harvey, « Yuse Banegas, un moro noble en Granada bajo Los Reyes catolicos », in, Al Andalus, XXI, 1956, P.297.

اتخاذ تدابير صارمة بحق الموريسكيين، وقد تألفت لجنة لوضع أنظمة جديدة تطبق على الموريسكيين منها:[1]

- منع استعمال اللغة العربية، ويجب تسليم الكتب العربية في ظروف ثلاثين يوما.
- إجبار النساء الموريسكيات على كشف وجوهن.
- إجبارهن على ترك أبواب بيوتهن مفتوحة في أيام الأعياد.
- يمنع الموريسكيون منعا كليا من امتلاك العبيد[2].

لقد كان للموريسكيين أسلوب خاص لمواجهة المد المسيحي يرتكز أساسا على مبدأ التقية، إذ يقول الشهاب الحجري في هذا الصدد: "...وكانوا يعبدون دينين: دين النصارى جهرا ودين المسلمين في خفاء من الناس... وقد أكد المؤرخ الفرنسي لوي كارداياك: "أن قضايا محاكم التفتيش مازالت لحد الآن ترتجف بالحياة، إذ من خلال شهادات الشهود ومرافعة المتهمين، أو اتهام الوكيل العام تنبثق أمام أعيننا الطائفة المسيحية وعلاقتها مع الأقلية الموريسكية..."[3]

لقد حافظ الموريسكيون وإلى اللحظة الأخيرة، على فقهائهم وتنظيماتهم وكيف كانوا يرشدون مواطنيهم. ولا غرابة في الدور الخطير الذي كانوا يقومون به، فقد اتصفوا بالصبر والثبات حتى في أحلك الظروف: ظروف السجن، ففي سنة 1601، وبسجن طليطلة كان الفقيه (Geronino de Rujas) يجادل المسيحيين المسجونين معه ويقول لهم: "...أنه يرغب في

---

1 – الأوامر صدرت بتاريخ 1566.

2 – Jacqueline Fournel, Guérin, les Morisques aragonais et l'inquisition de saragosse (1540-1620), thèse inédité, Montpellier III, 1980, PP.155-160.

3 –Louis Cardaillac, Morisques et chrétiens, un affrontement polémique (1492-1640), Paris, 1977, P.13

إنقاذ أرواحهم، وأن الله سوف يبصرهم وينقذهم من العمى والجهل الذي يحيط بهم..."[1]

وقد صرّح (Aznar Cardona) – وكان قد مارس مهنته التنصيرية طويلا لدى الموريسكيين– بأنهم ظلوا يمارسون عباداتهم إلى آخر يوم من طردهم[2]. وهذا ما أوضحه الشهاب الحجري: "..ولتعلموا ما بين عبادة الكافرين وعبادة المسلمين، ولنشكر الله على ما أنعم به علينا باعتقاد الحق، وطهارة الجسد والملبس، والجامع الظاهر النقي من الأوثان والأدران، لأنها من أعظم النقم"[3]

وكثيرا ما واجه الموريسكيون مخاطبهم بما يكنونه في صدورهم، فايزابيل دونيا (Dona juana Izabel) من طليطلة صرحت من "أن عقيدة العرب أفضل من عقيدة المسيحيين"[4]وقد توبع الموريسكيين من طرف محاكم التفتيش على الصوم، والوضوء والصلاة، والصدقة، بل الحج. وإذا كان الوضوء صعبا، فإن الصلاة على العكس من ذلك مارسها الموريسكيون بصيغ مختلفة، وكانوا يقومون فيها في إطار عائلي أو في إطار جماعي تحت إمرة إمام يختارونه لهذا الغرض[5].

كان الموريسكيون متمسكين بالصلاة إلى أقصى حد ممكن، مارسوها وهم في السجون وهم تحت التعذيب، وهم ذاهبون إلى الحرق، وكثيرا ما اكتشفوا من طرف جواسيس محاكم التفتيش وهم يمارسونها[6].كما حافظوا على قدسية يوم الجمعة، إذ تتوقف في هذا

1 –ibid, P.65

2 –Aznar Cardona (P), Expulsion justificada de los Moriscos espagnoles ysuma de la excelencias
christianas de nuestro rey don Huesca, 1612, F.49

3– ناصر الدين على القوم الكافرين، ص 44.

4 –Louis, Cardaillac, op.cit, P.16

5 –Jacqueline Fournel-Guérin, op.cit, P.132.

6 –ibid, p.133.

اليوم جميع الأنشطة التجارية، ويرتدون الألبسة النظيفة، كذلك حافظ الموريسكيون على صوم رمضان رغم شبكة الجواسيس الخطيرة التي كانت تحيط بهم، إذ يتغير في هذا الشهر سلوك الموريسكيين تماما.

امتنع الموريسكيون بصفة عامة عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر رغم الضغوط الكبيرة التي كانت تمارس ضدهم[1].

تعتبر الفترة الأندلسية تجربة فريدة بكل المقاييس، فقد وصل المسلمون إلى شبه الجزيرة الإيبرية وهم في أوج قوتهم، وطردوا منها عندما بدت في دولتهم عوامل الضعف والانكسار.

لقد عالجت الدراسات الأندلسية جوانب كثيرة لكن الجانب الديني لم ينل نفس القدر من الاهتمام، وقد حاولنا من خلال هذه الدراسة المتواضعة تقديم صورة عامة لما صار عليه الإسلام بعد سقوط غرناطة.

---

1 – idem.